

من مذكرات جدّة أمي
فاطمة بنت محمد سعيد آغا البديوي
1869 - 1958 م

صور من الحياة الاجتماعية بدمشق
في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

بقلم حفيدها الدكتور عدنان آق بيق

كتب خالي عدنان :

قمتُ بتدوين هذه المذكرات على لسان جدتي فاطمة ، عام 1953 ، وكان عمرها آنذاك 84 عاماً ، وبالرغم من سنّها فكانت تبدو عليها علائم الصحة والنشاط . . كانت تقضي نهارها قابعة في سريرها ، وقد رفعت الغطاء حتى وجهها ولقّت الشال على كتفيها وعصبت جبينها بالقمّطة وانكبّت على أشغال الصوف التي تحبّها . . وكانت سليمة الحواس ، تُدخل الخيط في ثقب الإبرة . . يبيضاء البشرة قصيرة القامة ضاحكة الوجه ، لا تنقطع عن أداء فروضها الدينية في أوقاتها المحدّدة .

كانت جدّتي تشعر بلذّة فائقة في الحديث عن ذكرياتها ، وخاصة حين تجد من يستمع إليها ؛ أما أنا فكانت ممن يُجيد الاستماع ، فكانت طالما تحدّثني عن طفولتها وصباها ، ولكنها أيضاً كانت سرعان ما تنسى ما روته لي ، فتعود لتحديثني عنه ذاته بعد ساعة أو أقل . وذاكرتها كانت بالنسبة لأحداث الماضي قوية ، فتراها تتذكر كل التفاصيل ، ولكنها تنسى ما جرى لها اليوم والأمس .

وخلال إحدى زياراتي القليلة لدمشق عام 1953 ، سنحت في خاطري فكرة تسجيل ما كانت جدتي ترويهِ على مسامعي ، ولم ألبث أن شرعتُ بهذه الفكرة على الفور ، فرأيتني أجلس بجانبها والقلم والورق أمامي ، ومضت تنطلق في أحاديثها وأنا أسجل . ولما كانت تصمت في بعض الأحيان كنتُ أذكرها فأسألها عن هذه الحادثة أو تلك ، فتعود لتروي وتروي . .

امتلأت أمامي صفحات وصفحات ، وجاء اليوم الذي شعرتُ فيه بأن جدتي قد أَلقت على مسامعي مُجمل سيرة حياتها ، وإن كان ذلك بوجه الإيجاز لا الإطناب . فها أنا ذا اليوم أحرّره كما سمعته ، دوغما تهذيب أو تشذيب ، حرفاً بعد حرف وبنفس لهجتها العامية الشاميّة . وإنما رتبتُ حكاياها بشيء من التسلسل التاريخي قدر الإمكان .

وأن أوان السفر من جديد ، فتركتُ هذه المذكرات لتبقى بين أفراد أسرتي صدىً باقياً من أنفاس جدتنا المحبوبة ، ولتذكر أبناءنا وأحفادنا بعبر مفيدة وصور طريفة من ماضي أسرتهم ومدينتهم الحبيبة دمشق .
وأخيراً ، فها هي فيما يلي قصة حياة جدتي كما روتها لي .

* * * * *

قلتُ :

وها أنا ذا اليوم ، في عام 1998 ، وقعت بيدي هذه المذكرات الطريفة والقيّمة ، بعد 45 عاماً من تدوينها وبعد 40 عاماً من غياب صاحبته عن مسرح الحياة ، فقرأتُ ما فيها ، ووجدتني في الواقع لا أعرف عن جدة أمي فاطمة البديوي أي شيء ، فأنا مع الأسف لم أدركها أصلاً ، فقد أبصرتُ النور بعد وفاتها بأربع سنين .

وكم شاقنتني هذه المذكرات ، وشعرتُ بأنفاس صاحبته وكأنها ترويه علي
بنفسها وتنفعل بأحاسيسها وعواطفها ، طفلة ويافعة ثم صبية فكهلة وعجوزاً
مسنّة . وكم أمتعتني حكايات وأضحكتني أخرى ، ثم كم اخترق الحزن قلبي
ومزقه بسكين حادّة جارحة عندما مرت بي تلك الفصول المؤلمة عن وفاة أطفالها
الثلاثة محمود وزهرة وجيهان . وبخاصة جيهان الحلوة التي كانت في ربيعها
الثالث كالياسمين ، والتي راحت الأم تتذكر بلوعة لثغتها المحببة بكلماتها الرقيقة
الطاهرة ، ثم انتزعها الموت بقسوة ، وهي لا تزال ممسكة بحبات الملبّس الدمشقي
الأبيض ، فانطلقت روحها الصغيرة الطاهرة ترقزق فوق أسطح الشام وذُرى
قاسيون وبساتين الغوطة .

جيهان . . لك كل الرحمة أيتها الملاك الطاهر .

لم تتمالك نفسي البكاء المرّ مرة واثنين وثلاثاً عندما قرأتُ هذه الحادثة
المؤلمة التي لم أكن حتى دارياً بها ، ثم لم تقوَ عينايا عند كتابة هذه السطور على
احتجاز الدمع من جديد ، فعجز القلم عن التعبير وحلّت محلّه العبرات الحارّة .
هل هناك أبلغ من هذا النص المباشر الحادّ الباتر بكل ما فيه من لوعة وألم ؟ . .

كم تمنيتُ أن أحظى ولو بصورة قديمة باهتة لهذه الفقيدة الصغيرة ، أو على
الأقل لو أعثر لها في تربة الباب الصغير على قبر أذرف أمامه دموعي على جيهان
عمة أُمي ، تلك الطفلة البريئة التي اختطفها الموت قبل الأوان . .

تابعتُ القراءة ، وأنا أكتشف فصولاً تعبق بأنفاس صاحبته التي بتُ أشعر
الآن حقاً بدمها يسري في عروقي ، ولمستُ بأن هذه الحروف لم تُكتب بالخبر بقدر
ما كُتبت بلواعج صاحبته وأحاسيسها العفوية الصادقة . وفيها اكتشفتُ فصولاً
مهمّة من التاريخ الشعبي لشامنا الخالدة ، جدّة كل جدّة وأُم كل أم .



كم أشعر الساعة بمسؤولية نقل هذه المذكرات إلى جمهور القراء المهتمين بتاريخ دمشق وتراثها الشعبي ، فهي في الحقيقة لم تعد مذكرات شخصية تتعلق بفاطمة البديوي فحسب ، بل هي أصداء حيّة من ماضي مدينتنا الحبيبة في أواخر القرن الماضي وأوائل الحاضر ، عاشتها كل جدّة وكل أم وزوجة وأخت وابنة من بنات دمشق .

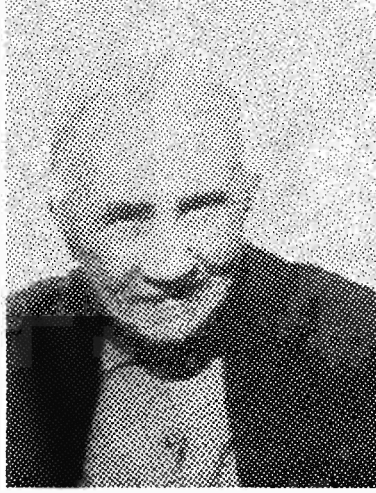
لكنني أطلب من القارئ الكريم أن يعفو عن بعض الكليّات التي قد يرى فيها بعض النبوّ ، وذلك أني أثرت ترك هذه النصوص القديمة على عامّيّتها وعفويّتها ، لم أعمد إلى تشذيبها أو تهذيبها ، بالضبط كما فعل خالي من قبلي . فما قيمة الأدب الشعبي إن نحن أعملنا فيه يد التغيير والتحوير والتهذيب ؟ إن قيمة الماضي لهي بنكهته الحقيقية وعراقته العفوية غير المتكلّفة . .

وختاماً ، فهذا هي ذي كلمات جدّة أُمّي أنقلها كما وردت على لسانها ، وبقلم حفيدها عدنان .

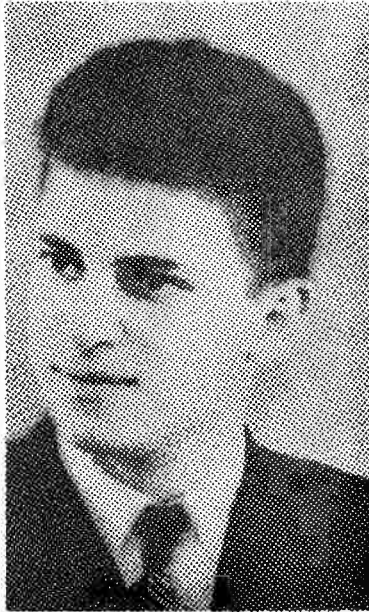
أما العناوين فهي من عندي ، أضفْتُها لتكون القراءة أسلس وأمتع . وكذلك أشير إلى أنني قد عملت غاية جهدي للتحقّق من جميع الأحداث التاريخية الواردة في هذه المذكرات ، وكذلك سنوات وقوعها . وجهدت بالعثور على تواريخ المواليد والوفيات والزيجات للشخصيات الرئيسة الواردة فيها ، كيما يكون لها قيمة الوثيقة التاريخية المؤصّلة ، وربطاً للحدث بالمكان والزمان ، والصورة إن أمكن .

وهذا في النهاية يسمي ما يمكن أن نُطلق عليه تاريخاً بمعنى الكلمة .





صاحبة المذكرات : فاطمة بنت محمد سعيد البديوي
1869 - 1958 م



كاتب المذكرات ، حفيد فاطمة البديوي
الدكتور عدنان ابن القاضي محمد آق بيق



أحمد آغا آق بيق ، زوج فاطمة البديوي
1866 - 1929 م



القاضي محمد بن أحمد آغا آق بيق
ابن فاطمة البديوي صاحبة المذكرات
1904 - 1976 م

«فنجان قهوتك عليّ»

كان جدّي آغا حارة ، يطلع بإيده كل شي . . وكان في واحدة إسمها أم سعيد ، وإجت أم سعيد قالت له : «دخلك يا آغا . . سعيد بدّهم ياخدوه عالسكرية . . بدّك تنقّدي ياه ، وفنجان قهوتك عليّ!» . وتاني يوم ، إجت حوّا خانم ، قامت أمي قالت لها : «خدي يا حوّا خانم هالصرة وعطيها لعمّي ، وقولي له هادا فنجان قهوتك!» . .

قامت حوّا خانم نظرت لحتى إجا ، فزّت لعنده وحاطّة شويّة بنّ بالصرة ، وقالت له : «والله يا آغا ، والله مستحيّة ومخجولة . . تفضّل هدول!» .

قام فَرَدُهُم ، ويلاقي لك ياهن شويّة بنّ ، وحسبها أم سعيد . . قام ركب فوقها ونزل فيها ضرب فين يوجعك ، وكان قايم من النوم مشمرّ ومكشّف ، ويقول لها : «يا صفتك يا نعتك . . إيه أنا عاوز فنجان قهوتك؟» . وكان هو مستنّي أم سعيد بالدقيقة .

وقامت أمي طار عقلها وتقول له : «دخلك يا آغا . . عمّي هي حوّا خانم مو أم سعيد!» .

يوم ان «طخت» المادنه

بعدين جدي أبو أمي كان يسحب صلوات بالأموي ، قام ضرب المدفع ، قال : «الله . . ما عدت ألحق أشرب!» . قامت طخت⁽¹⁾ فيه المادنة لصحن الجامع لحتى شرب . يبقوا بيت السّقا أمينني كثير صالحين .

* * * * *

(1) طَخَى : تعبیر عامّي دمشقي ، يعني أقعى وانخفض . أما أن «تطخّي» المئذنة ليشرب مَنْ عليها ، فهذه «تخينة» زيادة ، ولعله كان رأى ذلك في منامه !

سوق مدحت باشا مأوى للكلاب !

وعميّ صالح⁽¹⁾ كان بدوّ يشتري سوق مدحت باشا عالصقّين ، قامت أخته قالت له : «شو بدّك فيه ؟ هادا لسه بيصير مأوى للكلاب» . قام سمع كلامها وما اشتراه . ولّامات ، كل ولد مدري كم ألف ليرة ذهب طلع له ، وراحوا ديّوهم لبیت عمر باشا⁽²⁾ ، أكلوهم عليهم .

عرس أمي

أمي ليلة عرسها ، كان أبو خالد البديوي - الله يرحمه - كهّنه وإختيار ، بقا باعت معه أبي أغراض للعرس ، قالوا : «إجا العريس . . إجا العريس . .» . شقّت أمي عيونها قامت لمحتة وحسّبتّه العريس ، قامت غمّضت عيونها وما عادت ترضى تفتحهم . وبعدين لما فات أبي وقعد هو ويّاها يحاكيها ما تردّ ، يقول لها : «افتحي عيونك» ، ما تردّ . قام ينادي لأمها ، قامت شقّت عيونها ولفته غير هداك ، وأبي يبقى حلو كثير ، ركدت وراه وجرتّه وما خلّته يطلع .

بدلة عرس أمي كانت كلها قصب صرّمة⁽³⁾ عروق عروق ، قعدت أمي وعمتي قصّصوها وعملوا لي ياها بدلات صغار على قدّي . . تنين صغار ما في حدا ينبّههم ويعلمهم . . يبقوا يدقّوا اللحمه ، وقال هلّي ما تنعم يدعبلوها ويعطوها للقطاط .

(1) أي والد زوجها ، صالح آغا آق بيق ، أبو أحمد . والكّنة بالشام تنادي حماها «عمي» ، وحماتها «مرت عمي» ، أما الجيل الجديد اليوم فيؤثر على ذلك : عمو وخالة .

(2) كنا لتتحاسى عن ذكر الأسماء ، غير أن ما بأيدينا هنا وثيقة تاريخية ، تعهدنا ألا نحذف منها شيئاً ولا نحرف فيها قيد أنملة .

(3) الصرّما كلمة تركية sarma مشتقة من فعل sarmak ، أي يلفّ ، يغلفّ . تُطلق على الجوخ الثمين المطرز بخيوط ذهبية أو فضية . وكان هذا النوع من التطريز يستخدم لعمل كسوة الكعبة الشريفة ، أو لمعاطف كبار الضباط والحكّام ، أو لأثواب العرس للنساء .

الله يجيرنا من العين الصيابة

لما كانت أمي حبلى فيّ ، كان في واحدة اسمها شرّوف ، بس يا لطيف
يقولوا عنها عينها صيابة وبتخرق . . مرقت عليهم وكانت حبله وراحت . وبعد
منها مرقت بعد يوم مدري عشية ، وقالت لها : «قومي اولدي ، لايمتا حاملة
هالطن وقاعدة؟» . قالوا لها : ولدت . قالت : «منين ولدت ؟ امبارح ما
كانت ولدانة !» .

قامت اتعسّرت وضعفت على أثر الولادة ، وبعدين الحكمما قالوا لهم :
«بدكم ياها ولا بدكم الولاد ؟» ، قالوا لهم : «لأ ، بدنا ياها» . ومن بعدها ما
عادت جابت اولاد⁽¹⁾ .

لما حمّرت

والله الحمد الله ، ماضي عليّ أيام . . مرة حمّرت وأمي لساها صغيرة وما
بتفهم بالاولاد ، وعمتي الله يرحمها كمان ما عرفوا يداووني . عشّشت الحميرة
بعيوني وصارت تسيل . . ما خلّوا كحال . . في واحدة يهودية بطالع الفضة ،
أخذت أربع ليرات ذهب وما استفدت شي . . تاري هالسيل معشّش . . وقتها أنا
ورضا بك العابد .

هيك لحتى بالأخير تبقى أم عارف الله يرحمها ساكنة بالسّاحة والقاعة ،
وبيت أهلها بيت رمضان مشهورين للعيون ، أخذوني لعندهم ، يا ويلي الله لا
يدوّقها لحدا . . يا لطيف . . قعدوا أبو عارف ومن عندها رجال ، كل واحد متل
اللاّطة واحد على رجليّ وواحد على إيديّ ، وفتحوا عيني يجأروها ويسحبوا
العرق بها السّارة ويقرطوا من سفله بالمقص قرط قرط . . سبعتشر عرق حطّوهم

(1) من الواضح أنهم أجروا لها عملية استئصال للرّحم ، بسبب وجود تليف أو التهاب ما .

عالورقة ، ويجيوا بعدين هالمح وهاليمون ويبقظروا . وبعدين بيعطوه بالأخير للواحد إبرة ويحطوه بعين الشمس ويقولوا له : الضمها .

وكان في حَسْتَخَانَه على طريق الصالحية وفيها وردشان ⁽¹⁾ ، وكانوا مشقيت بيتنا بيت الإمام ، وابن الإمام شغلته بالخستخانه ، ياخذني لعنده يقلب لي هالجفن ويحك لي بالحجرة الزرقا ، ويسحبني مثل العميا عالبحرة وأسفح أسفح على عيوني وأرجع .

وكان في حُكْمَا : نسيم اليهودي ، وواحد يهودي بالقساطلية ، وأبو صالح شورى بسوق القطن مواجه الخضيرية ، وراغب أفندي [شورى] طلع إجزي ⁽²⁾ .

وهادا يلي بالقساطلية ، يعلّى أمته ، أخذوني لعنده وشارطوه على أربع ليرات . . قلب لي هالجفن وساوى لي عين ، ووقف يقول لهم : «ما بساوي التانيه لتعطوني كمالة الأربع ليرات» . . وتفور أمني ، لراحت تديّنت من بيت شهيم وعطوه .

وبعدين سرقوني من أبي وأخذوني لبيت رمضان ، وفي إلناقرايين بيت فارس آغا ومانعيني عن المي بعد ما قصّوا لي السيل . . وكان في بالأوضة هلّي حطّوني فيها شربة ، الكامخت عليها هالسّمك ، خليهم ليطلعوا وأمسك هالشربة وأكرع أكرع لأشبع ، ورجّعها ونام .

حطّوا لي درانيم على نقرتي ، ما أقدر أتحرك لا هيّك ولا هيّك ، وبعدين قلعوه وقشطوه بالموس هو واللّحم ، وحطّوا لي ورق هالسّلّق ، ويبقوا ينقعوا قمع رمانه حلوة وقمع رمانه حامضة بنجاسة ولد صغير ويكحلّوا فيها العين ، لأن يقولوا : «بتجي على نجاسة ، وما بتروح إلا على نجاسة» . . والله قضيت كثير ، يقولوا : «يا ندرى من بعد الجدرى ، يا عيون من بعد الحميرة» . .

(1) وردشان اسم معروف لأهل دمشق في مطلع القرن العشرين ، وهو طبيب نمساوي كان مقيماً بدمشق في أواخر العهد العثماني . أما الخستخانه فكانت عند بوابة الصالحية .

(2) إجزي (أو إززي) : صيدلاني بلهجة الشام القديمة ، مصدرها من التركية : ecza أدوية .

يبقى يركبني حسين على هالفرس ، ويسوق فيّ وياخذني على حارة اليهود
ويكحلّ لي عيوني ، ويتلفّت عليّ ويقول لي : «أنا ابن ناس ، أنا ابن نَعَم» ،
ينخرّ قلبي⁽¹⁾ .

أمي وستي وأم ستي

أمي⁽²⁾ أوقات تنهزّ ، تروح لبیت أهلها . . أبي شوبده يجاكرها ، يروح
يركّبي على كتفه وياخذني . . ويبقى البوابات كل شويّه وشويّه بوابة ، يدقّ
هالبوابة ويفتحوا له يصل للبوابة الثانية ، ينده : «يا حارس» ، يفتحوا له حتى
يصل غالبيت . . ثاني يوم ستي تقول لها : «خطيّه يا بنتي ، هالبت يداوروها» ،
حتى ترجع ويتصالحوا . .

ستي ما كان في منها ، بنت محمد آغا الحصني ، وأمها بنت السمان . .
وين بيت الحصني ، يبقوا يحطّوا الحلّة على وشّ البحرة ، ويحطّوا بوسط منها
عصاية ، ويحطّوا اغراض الحلاوة مشان الحج ، وتدقّ نوبة المزاهر ، وتصير
العصاية تقتل لحالها حتى تستوي الحلاوة⁽³⁾ . ويفرقوا عالاهل ، ويصبّوا
بالسحاحير وياخذوها عالحج .

كان أبي⁽⁴⁾ صاحب حظ كثير ، والله عشيه لما يجي يكتّ المصاري بصينية
الأركيله الكبيرة . . كان بالأول عطار ، وبعدين قعد بمشيخة الحارة .

* * * * *

-
- (1) حول طب العيون بدمشق آنذاك ، انظر ما سيرد بمذكرات الدكتور شاكّر الخوري 1876 .
(2) وكان اسم أم فاطمة أمنة السقاّ أميني ، توفيت في بدايات القرن العشرين .
(3) قبل شوي «طخت» المادنه ، قلنا : ماشي الحال . . بس كمان صارت هلقّ العصايه تقتل
لحالها وتطبخ حلاوة ؟ تخينة هيك كثير والله يا ستي !
(4) أبو فاطمة كان محمد سعيد آغا البديوي ، وليس لدينا تاريخ ولادته أو وفاته .

بيت آق بيق بمحلة تحت القناطر

كان بيتنا عتيق رمة ، بعدين هدّوه وعمّروه وطلع بيت لايق تحت القناطر ، لكن يا حسرتي ما تهنّوا فيه ، باعوه واشتروا بيت القنّوات ⁽¹⁾ . وصارت تلبسة أبوك فيه .

تحت القناطر ⁽²⁾ تبقى بيوت راتبة . . بيت الطّرْقجي ، بيت العادلي ، بيت البارودي ، وهالنّاح على هالصف بيت الإمام وبيت راشد ، مشقيّت منه حارة بيت الشرجي ، كلّه أكابر وكلّهم مُسعدين ، قاطع منه شويّه بيت الحسيني وبيت الدالاتي . حارة محشية حشي كلها أكابر .

خالي عبد الغني السقا أميني

خالي عبد الغني شو كان فالح ، تشوفه عين تراه عم يكرج ويركد ، اشترى بيستان البطيخي والبركة وبيستان الباشا ، واشترى بيوت بالعمارة والقنّوات . بَسْ يبقى قد حاله بُخيل ، قال يمّص العنّبه والتّفّل يحطّه بالخاوية ، قال يساووه خلّ .

* * * * *

في كان واحدة ببيت جدي إسمها أم عبدو ، جابوها لعند أمي ، وكانت أمي جايه جديد ، وعاشت عندنا وتجوّزت ، وأخذها مصري وإجاها اولاد ، وأنا لمّا وعيت عالدينا قول لها «أختي آمنه» . وتبقى الله يرحمها تتخطّط بالشحّار وتاكل السمك وتقرط حسكه ما تقيمه .

(1) أي محمد بن أحمد آغا آق بيق . وقولها «باعوه» كان حوالي عام 1942 بعد أن رَمّوه .

(2) تحت القناطر محلة كانت معروفة بين الخراب ومادنة الشّحم ، بطرف حي سيدي عامود .

سهرات الصيف

يبقى بيتنا يغلي غلي ، والله من عند الباب لراس الديار يفرشوا الفرشات ،
الفرشة بجانب الفرشة . . يبقوا بالصيف يناموا بالديارات ، يمدّوا لهم هالبسط
وتحتهم عبي يردّوهم عليهم حتى ما يتوسّخوا . . وفي تخت خشب كبير ، يفرشوا
لأمي عليه ، ويقعدوا بها لفرشات عشية وتبدأ السير والقصص ؛ كثير شي ظريف
بالكترة ، وبالأخص إذا كان في ضوقمر . ويبقى بيتنا ما يخلي من الضيوف ،
دوم يغلي غلي . . خصّا بيت يوسف آغا ، أهل عمتك أم ديب ، شويحبونا
ونحبهم ، والرّخار بيت يوسف آغا دوم بيتهم يغلي غلي ، يبقا لهم المعضّمة
ويجيوا قاقون عجه والله . والتانيات يجوا عندهم المعاضمة .

مرّة كانوا نايمين عندهم المعاضمة ، قاموا بهالليل دنيه رمضان ، صار
السّحور ، قامت ميمونه حماته لأبو قاسم ، قامت بدّها تسحرهم وبدّها تفوت
لبيت المونة ، يبقا له باب من المربع هلّي نايمين فيه . وفاتت على مهلهما طالعت
الاغراض ، وقامت ضرّت⁽¹⁾ وهي طالعة بالعتبة ، قام واحد قال له للتاني :
«قوم صار السّحور ضرّب المدفع !» .

والله رمضان كان له رنة . . تشوف على هالسّحور يساواوا خشاف برمان ،
ويقعد عمّي أبو اسماعيل ياكل ويحكي سير ، ويبقى يضحك يطير هالخشاف من
تمّه ومناخيره .

يقعد أبي على بكرنا يغلي هالشاي ، ويحطّوا هالقريشة وهالجبنّة
وهالزيتون ، ويجي أبو اسماعيل يحكّ بالساقط ، يحكّ ويحرّك فيه الشاي بعدين
ويضحك .

* * * * *

(1) كنّا قد اعتذرنا في المقدّمة عن بعض الكلّيمات النابية ، فعُذرنا تحت باطنا ، وكل مين ذنبه
على جنبه . . إيوه !

بقا لما يجوا يزوروا بنات محمود باشا ، عندها أمي أمّون قاعة وعليها جنية ، تفتح باب القاعة عاجنية والجنية إلها طالع ميّ ، من كتر هالميّ تطلع كزبرة البير مشاط مشاط ، وتبقى عاجيطان نازلة من عيونها . وروح لعندهم نحوّش ونبيع لبعضنا عروق ألماس ، يعني من كزبرة البير ، ونلعب بهالديار «بشتكها»⁽¹⁾ ، نقعد نص قعدة ونفّقش بإيدنا ، وننطّ نعمل طميّة . . حيّلاً⁽²⁾ .

كانوا بيت يوسف آغا بصقاق البركة⁽³⁾ . . اصأله بيت كبير ، وكانوا حسن آغا ومصطفى آغا وعلي آغا و خليل آغا بهالبيت كل واحد إله قرنة ، وكلهم ونسوانهم بالبيت وكلهم على فرد قلب . . خصاً ميمونة الله يرحمها ووسيلة مرت تلّو وأمنة مرت الديري وحسيّة وعاتكة وعليا وحُسن . . يبقوا يخيّطوا سوا مريم وحسيّة ومروة ، ويجي خليل آغا يقعد على هالتخت بأرض الديار ويفرّق عليهم الكره .

بيت العابد

وبيت العابد . . يبقى عبد الغني باشا ورضا بك وخالد ورشدي اولاد محمود باشا ، ما صفي منهم حدا غير رضا بك ، كلهم راحوا ، اصأله هديك الإيامات . . محمود باشا يبقى له محارة بيضة عالية ويركبها وخدام يركد وراه ، واولاده كلهم جّخ .

مصطفى بك كان عند السلطان ، وبيت العابد كانوا كلهم القايمّقام والمتصرّف . . يقولوا وقتها الدولة كلها لبيت العابد . . هنّه يوظفوا وهنّه يعزلوا ، وهنّه الكل باكل . .

(1) بشتكها : كلمة لا معنى لها ، مجرد تنعيم لفظي ، مثلها مثل هشتك بشتك .

(2) حيّ الله : كناية عاميّة تعني : لا على التعيين .

(3) زقاق البركة حي في محلة السّويقة أخذ إلى سوق باب السّريجة ، وقربه زقاق حطّاب .

حادثة جوزي أحمد آغا آقبيق

جدّك الله يرحمه عاش حياته بعذاب رجله . . كان في بالجديّة عرس أبو عبدو غزاله ، وكان جدّك صغير . . انعزموا عالعرس وطلعوا ، وكان صغير وحلو ولا بس هالقصب ، وفي واحدة بيت الحناوي عينها البعيدة بتصيب . . كلّه من الله . . قوّصوا حاجة فاتت بقلب السياج ، إجا بدّه ينكشها يطالعها ، داير الزناد ناح رجله . . علق الزناد بالعليق قام طلع على رجله وشعلت قواعيه . . طفّوا له قواعيه ، وجابوا جمل ، حطّوا هيّك خيشة تبين وهيّك خيشة تبين ونزلّوه عالشام .

وما كان حكما مثل هالأ تفهم . . كان ديب الساطي الله يرحمه داوى له ياها ، ولكن ضل خردق من جوا . . المخ طلع وعضام رجله مع منو . . هيّك صرّة . وشو طالعوا بارود ، يبقوا يدكّوا الجفت بارود وخردق وحديد وخردق ، وكله طلع على رجله .

وعاش حياته كلها بعذاب رجله ، وأخوه قاسم راح بالرعبة . . حزقت بقلبه وراح فيها . . انصاب بمرض القلب ، والله كان قاسم وقاسم . . قاسم أفندي يشتغل بالسرايا ، يعني الاتنين تشرّكوا بهالعرس . شو حياته جدّك ، لولا ما جسمه قوي ، صفتّ رجله على طاق اللحم . يبي عالسلاح ، والله الواحد عمره ما يقربّ عالسلاح !

وقائع عائلية

قاسم أفندي خلّف سعدية وعبد القادر أبو قاسم وأنور ومحدّين وأسعد ، وسعدية أخذوها بيت الزّين . وقت مات قاسم ضلّت مرته أم عبد القادر بيت حماها ، ويبقى قاسم أفندي عزيز عاليلة ، وجدّك كان صغير فاتوا

فيه : «أخوك ومرت أخوك واولاد أخوك!». بعدين غصبوه وكتبوا كتابه عليها . وليلة العرس هرب وسكن عند أم عارف ، جابوه وبرطلوه بالمصري . . نافلة ، مو ممكن .

وكانوا حاكين فيّ وبعدين بطلّوا ، ولكن حطّوا علينا وأخدوني . وقت أخدوني ، عمّي نقلوها من البيت . . (تبقي أم عبد القادر مرت جدك عمّي) . . واستأجروا لها بيت بالقنوت بالتعديل ، كل يوم ياخذ لهم طبخ . وبعدين اتفقنا وقعدنا سوا ، وتبقى بسيطة وقلبها نضيف . ولكن بعدين تركها ما صار له قلب يحطّها ويقعد وكانت مرت أخوه . . لكن ضلّينا قاعدين سوا حتى ماتت .

يوم عرسي

وقت عرسي⁽¹⁾ صاروا يتماتلوا فيه ، يقولوا : «متل عرس بيت آبيق» ، وعمّي ما بدّو يجيب وقتها مغاني ، قاموا توسّطوا بيت اليوسف وقالوله : «يا أخي إنت كم صبي عندك؟» . . وبعثوا خبر لسعدة وروزة ، وتبقى الخرشفوقة شيتهم اسمها ليلي بنت أبو قفة . . بنص الليل تقوم تهرّج وتقول : «يامو بدّي بانه» . .

والمداعي يقعدوا على تخوت ، وان كان في نسمة ولا برد ولا مطر يخيّموا البيت ، ويبقوا المداعي كل طفّة بطفتها تجيب مشكاك قباقيب يربطوه بالحبلة ، يلبسوا بالعرس قباقيب شبراوية .

والعروس يفوتوها على مخدع ، ويغمضوا لها عيونها ويدورولها وشها عالقرنة ، هلّي بدّو يشوفها يفوت يكشف على وشها ويقول : «حصّنتك بالله» . وقبل ماتفوت ، واحدة تشلّحها الكندرة ، وواحدة تجبلها السّفرة ، وهيك كل واحدة إلها بخشيش . وتقوم واحدة تمسك محرمة وتلمّ هالألمات من هالمداعي .

(1) كان العرس في عام 1886 ، وكان عمر العريس أحمد 20 عاماً ، والعروس فاطمة 17 .

ويجيئوا هالغندرة ويغندروها ، ويشكّوا لها هالأماس على هالشّبة⁽¹⁾ ،
ويلحشوا لها ضفايرها ضفيرتين لقدّام ، وصدرها يعبّوه ألماس ، ويجيئوا هالميدكيّة
حمرّة وعليها عروق ذهب ، ويلبسوها قبقاب مدهّب ، ويوقفوا قرايب العريس
ويمسكوا معاها الشمع ، ويصرخوا : «أوها . . أوها» ، ليجي العريس .
ويقدّموا لناح العريس ويطرقوا راسو براسها ، ويفوتوا يعدّوا .

ويجوا هالمغاني ويمدّوا محرمة قدّامهم ويمسكوا هالدفوف ويوصفوا :
«اسم الله اسم الله يا زينة» . . وتجي هلّي عليها نقوطات ، ويشتغل ورّ المصاري
كلّ متو على مقداره ، لتقلب المحرمة هالقدّ ، ويضبّوا هالمحرمة وياخذوها ويقعدوا
هالمغاني عالتخت ويقسموها .

تبقى أسما السنونية جوق ، وسعدى وروزة جوق ومعهم ليلي بنت أبو
قفّة ، والحولة جوق ، وأنيسة بنت جلالة جوق ، والكروزة جوق . . وأنيسة إلها
رشّ ذهب إله شكله من هالكثف لهالكثف ، وكان يحبّها البكري ، وعيونها ما
شفتهم على حدا ، وتوقف تدبك وهالرشّ يعمل «خش خش» .

والعريس جلوته وحده . . أهل العريس وحدهم ، وأهل العروس وحدهم ،
وهالنقوطات عم تلتحش . وأول ما يفوت العريس يزلغطوا له ويقولوا :
«أوها ، ارفع راسك واقشعها . . أوها ، قبل ما تفتح مجمعها . . أوها ، إن كان
ما عجبك . . أوها ، لبيت أبوها رجّعها ! . .»

* * * * *

كل ما يجي أبي لعندي يبقى معي هالجيب . . يبقى لي ناموسية كبيرة من
صدر القاعة للباب ، يوقف قدّام الناموسية ويملص من جيبه ويزتّ على ضهرها :
البردقان ، الكستنا ، البلح . .

(1) الشّبة كلمة تركية : şapka ، تعني : القبعة ، غطاء الرأس .

وكانوا إن طبخوا حليب يسكبوا لي زبدية هالأدّ ، كل يوم ما تنخرم
السكية .

أيام المشمش يجيوا هالقطافية الكبيرة ملانه ، ويحطّوها بأرض الديار ،
ويحطّوا هالصحون ويحطّوا هالمشمش بهالصحون . . يخلص صف يطلع
صف ، هيك حتى تخلص .

شو كنت أتغندر !

«واه الواه» شو كنت أتغندر ، حطّ هالكحلة وهالخطوط ، وحطّ
التشكيل على راسي ، وشعري كنت إكعي فيه لما روح عالحمّام ، وكنت إتشكّل
بالياسمين .

ابقى روح لعند هالتجّار ناح خان الحماصنة ، آخذ هالملايا القصب على
أبي ، وفوط الحمّام كلها قصب آخذ وامشي . صاحب سعد أبي من صغره قبل
مشيخة الحارة ، والله يبقى يعبي الذهب ويعدّهم بالصواني .

والله الصابون هلّي يجيبه عمّي صالح آغا ما شفت بعد هالصابون ، هلّي
هالقدّ وطبعته هيك وروايح مسك . يجيب السحّارة ، ويحطّوا لي سلّم ، ودابر
ما فتل القاعة في حلقة ، يناولوني الصابون صفّها على هالحلقة ، وخلي بين
الصف والصف فاضي حتى يجي عليه الهوا .

عزائم الفياجنة

كل يوم يندقّ الباب . . مين ؟ إجت الفياجنة . . عندهم عرس . . يجيوا
حمال الخطب حملين تلاته ، ويروحوا هالنسوان عالسوق يتبضّعوا ويتجهّزوا .
كل يوم نطبخ لهم مجدّرة ومناسف ، يقعدوا بأرض الديار وينصقّوا ، هيك صف

رجال وهيك صف رجال . وبعد ما يقوموا عن الأكل يسكوا دبكة ، ولما ينطّوا
النطة يصل راسهم للنانرجة ، ويقولوا : «دارك أبو أحمد يا دار . . دايم الدوم
تضلّ عمّار . . بوجود الأفنديّة ، دوم يجيلك زوّار» .

كانت مريم للطبخ ورحوم لأوض الفلاحين ، واللحّام يبقى عال بوابة ، يوم
العيد يجي يدبح الخواريف عتّا بالبرّاني من سنة لسنة ، مدري أدّيش ياخذ الليرات
الذهب ، ويبقى اسمه أبو ياسين .

«كلّ راح بعزقة»

والله كان عندي بيوت كثير ودكاكين . . بيت بصقاق البرغل ^(١) ، ودكان
بالزورّيّة ، ودكان بسوق الخجا ، وحصة بالدّرخبّيّة ، وحصة بجونية ، وحصة
بنجّهة ، وجنيّة خان زاده ، آخيّو . . والله خلّف لي كثير أبي ، كلّ راح بعزقة يا
حرام الشوم . واولاد عمّي لو كان صحيح ضايّين إيدهم كان عندهم شي كثير .
كان ابن عمّي أبو فايز يركب هالفرس ويشكل هالكرباج بالجزمة ،
وفلاحين تابعين وراه . . ويلاّ على هالضيع . . كان هو ماسك ضيع أبي ، ولما
ينزل يكون معبّي الخرجين تبع الفرس ذهب . . يكتّوهم بأرض القاعة ويعدّوهم
بالطاسة .

الفحم زمان أوّل

زمان أوّل ما كان في صوبيات . . كان في فحم مومتل هلاّ . . حضّر المنقل
قيم صفوته وأطمر كل طمّرة هالآدّ ، وجيب هالطمّرة وحطّ فوق هالطمرات
وعود عمّره ، وحطّ هالدقّ ويشعل المنقل تلاقي الهبايل الزرقا طالعة . بعد ما

(١) من أزقة الشاغور المعروفة ، ومنه حماتي السيدة رجاء تسابحجي ، طيّب الله أيامها .

يقطع فوّته على هالمخدع ، يقعد لتاني يوم ، يروح الوشّاني نحفر على تاني
طمرة .

يبقى عنا بيت المونه في تتخيتة عالية وتحت منها فاضي ، عبّي فيه الفحم ،
وعالتتخيتة صفّ الحطب ، تمّ صفّ الحطب حتى يصل لسقف الأوضة . . حطبة
حطبة أترسه للسقف .

والله يبقى خير كثير ، اصأله . . نجيب هالصينية ونحط هالفحم بالمطبخ ،
ونساوي كنافه اسمها «المغسولة» حليب وقطر . . حطّ هالحليب يطشطش ،
وحطّ فوقه قطر وبعدين حليب ، ثلاث أربع مرّات . ولما يستوي الطرف التحتاني
أرفعها على كرسيين قش وأطرقها بالحيط حتى تتلحح وأعرف استوت . . طبّ
فوقها صينية رَخَر وأقلبها . .

حياتي اليومية

أقعد بهالليل وحطّ هالميّ ، ودقّر باب الحريم من خوفي لينزل عليّ حدا . .
وأتناوق على هالطُوق عيني عليها . . إسها لي سهوة ، وقوم قول لحالي :
تأخرت . وقت يطلعوا بالتراخيم كون بأول وقت يآدنوا الصبح كون بالمشركة عم
أنشر الغسيل .

وقوم على بكرة بكّير أطلع على هالياخر⁽¹⁾ ، ساوي هالفرشة تبع
الدواب ، وجيب هالسطل ونضفّها وغسلّها وحسّّها بالمحسّة وبالكبرة ، ومسّح لها
عيونها وأعقد لها ديلها .

والسجّاد مدّه بهالديار ، وأنزل فيه فرك بهالطاسة على قفاها ، وبعدين قش
وراها ، تلاقي هالقدّ الغبرة .

(1) الياخر : كلمة فارسية الأصل ، تعني حظيرة الخيل والدّواب الملحقّة بالدار العربية .

خير كثير كان ، والله السمّنة وقت أغليها وعبيها بالتنكات تلاقي ريحتها
مثل المسك . وأبقى صولّ القمح وكومّه على سماط الليوان حتى ينشف ،
وأبدره بهالمشركة هالعلو ، نزلّه من هالمشركة وحطّه بهالكندوش .

واهلواه شو كنت شاطرة ، والله عمتك مسرة⁽¹⁾ كانت جتنزل ورا الطّبق ،
عم أطلق وأنا عم أغسل . . تقول لي مرت عمّي حسية ، الله يرحمها ، وقت كنا
سوا : «والله بشتهي تقعد لي لك شوية قدامي» . . اصأالله ، تبقى متنية تقعد على
هالتخت وتحطّ هالأركيلة من تمها لثمّ عمّي .

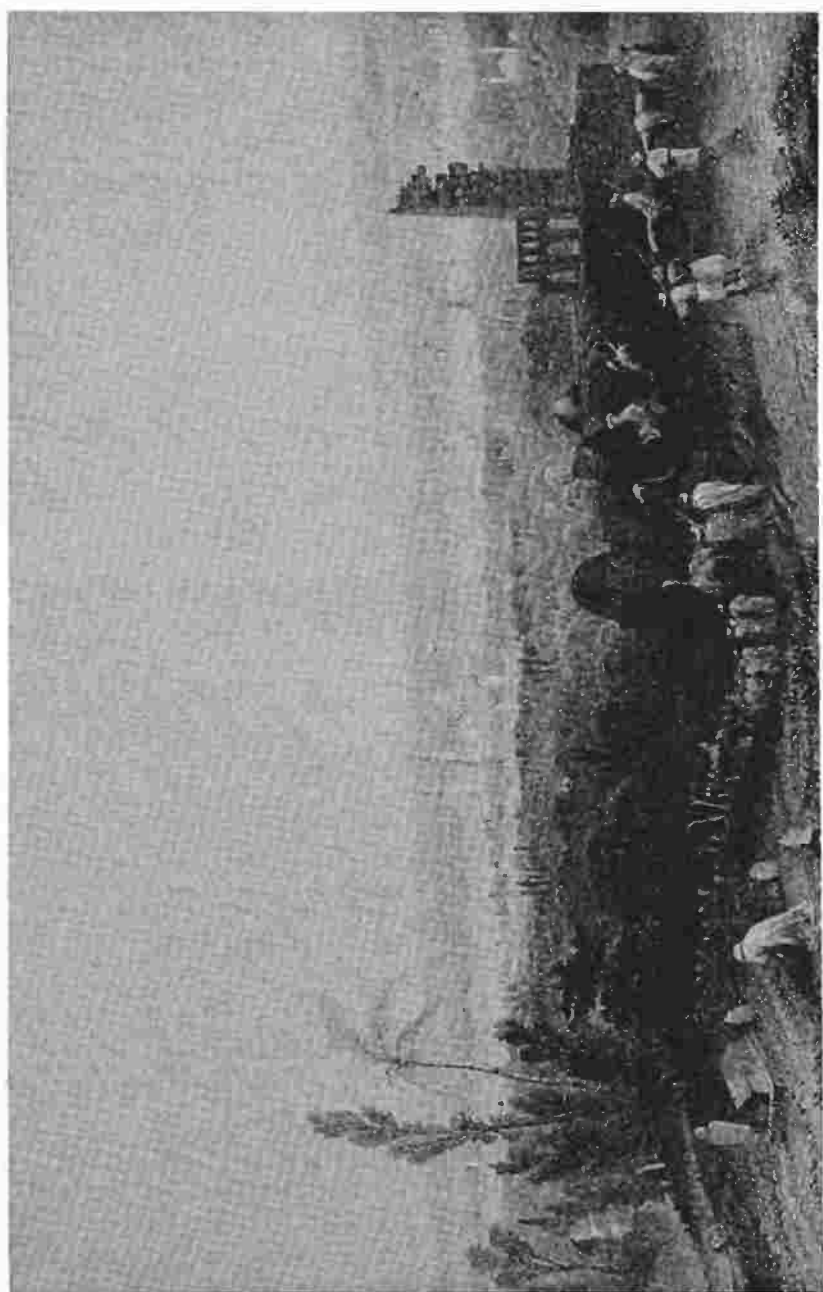
حبّلاس وصبّارة وملبّس

ييعتوا لنا من حاكورة المنتنة الحبّلاس ، الصبّارة ، أشكال ألوان . . أيام
الحبّلاس حبّلاس ، أيام الصبّارة صبّارة ، والله نعيها بالطّبق . .

ووقت ينقرا المولد شيت النبي ، الله مصلّي عليه ، المتولّي تبع الأموي بيعت
لجذكّ اتنا عشر صرة ملبّس . يقوم جدكّ شوبده بيعت له نقيضها ، يساوي له كشك
الفقرا ، لكن شو كشك فقرا : يجيب اللوز ، يدقّوه يدقّوه وينعمّوه ، ويحطّوه
بشاشية ويستحلبوه بالحليب ، ويحطّوا له عطر الورد وفستق ولوز وجوز هند ،
ويحطّوه على وش الزبّادي كبب كبب . يبقوا بيت آق بيق⁽²⁾ كثير كثير جَح .

* * * * *

(1) يعني ابتنها مسرة آق بيق ، ولدت حوالي 1898 ، وتوفيت إلى رحمة الله في عام 1979 .
(2) الكنية تركية : Ak-bıyık ، معناها : ذو الشوارب البيض . أطلقت على جد العائلة في
القرن الخامس عشر ، وهو متصوّف مشهور في مدينة بورصة تؤثر عنه حكم ، منها :
«الدنيا مزرعة الآخرة» ، وكان من مريديه السلطان محمد الفاتح نفسه . ويروى أن
الشيخ آق بيق دده Ak-bıyık dede ، كما كان يدعى بالتركية ، بشر السلطان بفتح
القسطنطينية ليلة 29 أيار 1453 م ، فتمّ له ذلك الفتح العظيم ، وعاد فقبل يد الشيخ .
هذا وقد هاجر فرع من العائلة إلى دمشق في القرن الثامن عشر ، وبقي بها إلى اليوم .



مصطفى أفندي آقبيق

يقعد مصطفى أفندي أبو ابن عمّك صبحي جوز أختك ، على هالليون
وننصف قدامه ، ولا حدا يسترجي يحرك قدامه ، أول ما حدا ينعس يقول له :
نعست ؟ تقول له : لأ ، قاعدين !

وأم عبد القادر مرّة بالظاهر - غصب عنها - «زقزت» قدامه ، قام
حكى سيرة : كنت سهران ، ومدري شو ، لحتى جاب مناسبة وقال : «والحمار
ضرّ..!» .

وأولاده هلاً كلهم ظراف ، سارة وزاهية وصبحي ظريف⁽¹⁾ . بس
بيته كان عسر ، مرتّب ومرسم ، لكن حلو وأكابري ، والعسكرية عاطيها
استحقاقها ، هالسيف وهالترتيب وهالنياشين .



الفريق مصطفى باشا آق بيق باللباس العسكري

(1) وأبناء مصطفى أفندي هؤلاء كانوا من زوجته الدمشقية من آل الجبّان . وقبلها كانت له
زوجة أخرى في تركيا ، وله منها أولاد ، منهم الفريق عدنان وعاصم باشا آق بيق .

من ذكرياتي

وين هديك الأيام . . كنت بالجديدة أقعد بالشباك عند عشيّة ، وتلاقي على طرف النهر هلّي عم يعبّي ، وهلّي عم يغسل ، وهلّي عم يحكي ، وهلّي عم يغسل خاروفه . . شي بيسلّي .

ووين بيت أبو بلال ، تلاقي يساواو لنا هالعزائم ويعملوا جهدهم : الحليب ، البيض المسلوق ، الشاكرية (ويقولوا لها : لبن أمه) . تبقى الجديدة شو بدّي قول لك ، كل يوم يطلع منها ميتين خيال ضيوف ، وبيات فيها ميتين خيال ضيوف .

كان بدّي تتفرّج يوم إجا الجراد . . تلاقي النساوين سارحة ، هلّي حاملة العصاية ، وهلّي حاملة التنكة ، وهلّي حاملة الطشت ، وينقروا عليها ويصرخوا : «يلّلا على الجراد . . يلّلا على الجراد !» . وتلاقي السّما مؤميّنة .

بالجديدة قوم على بكرة بكّير ، ما يكون حدا قام ، قشّ قدام هالبوابة وكّنس المصطبة . . وحضّر دولات القهوة والأراكيل ، وعبّي هالجرة من النهر يكون رايق . . يفزّ جدكّ يقعد على هالمصطبة ، ويجوا بقا أبو الجود وأبو حسن وحسن الدّنا .

ينزل جدكّ عالشام بكّير وقت يججه الضوّ ، وقريب العصر ما إسمع إلا عم تصهل الفرس ، وأركد أفتح البوابة وأسندها ، ويفوت بهالفرس وهالخرج تحته متعتع محشي حشي .

يبقوا بالجديدة يركّبوا العريس عالفرس ، ويحطّوا حجب الفضّة والقصب ويدندشوها مثل العروس ، ويركّبوا هالعريس ويدوروا بهالبلد هالطبل وهالزّمر .



وقت كنا بخان الشيخ

وقت كنا بخان الشيخ ، كنا من المغرب نسكّر هالبوابة . ومرة عرب
حطّوا بجانب النهر ، قاموا إجوا كسارة (قطاعين الطريق) بدّهم يفكّوا الجمال
وياخدوها . وبهالليل ما تسمع إلا قواص ، وطلعوا فلاحين خان الشيخ من
عالأساطيح يضربوا . . وقام جدك وعمك يركبوا هاخيل ، وتسّلحوا وطلعوا من
هالبوابة وغاروا على الكسارة وهربوهم ، وجرحوا واحد منهم وأخدوا فرسه ،
وطلعت فرسهم سارقها من زمان . .

* * * * *

مرة زارعين بالسحرة بخان الشيخ سحرة بطّيح ، لكن شي كبيرة ، بقا
عمك صالح واقف عليها ، وبقا واحد عسكري جندرمة في محاييس آخدهم
يودّهم لقطنا ، وراكب فرس ومسلّح . ولما مرق لحش حكي للنسوان وعمك
واقف ، قام سبه ، ولما سبه صار يبعد لورا ويغور عليه ويقوّص بهالمارتينة ، تلاقي
الغبار يعجّ عجّ وعمك يستنّي يقربّ لعنده وما يهرب ، وكان ولد صغير . ويسنزل
فيه بالحجار ، وبعدين نطّ عليه وزّته عن الفرس وخلصه السيف والبارودة ونزل
بوشّه بالحجر ، كان حيموته ، وقاموا المحاييس هربوا .

وهذاك نزل عالشام اشتكى ، وكان وقتها رستان بك يوزباشي جندرمة ،
وراح جدك وقتها وحكى لابن اليوسف ⁽¹⁾ ، ورستان بك اشتغل له كثير حتى نفاه
منها . وكانوا إجوا لهنيك تحاوطوا عالحوش وبدّهم يلقطوه ، ما قدروا له ركب
هالفرس وهرب .

(1) يعني عبد الرحمن باشا اليوسف ، محافظ الحجّ الشامي وأكبر المتنفّذين في ولاية دمشق
بأواخر العهد العثماني ، على دور السلطان عبد الحميد والإتحاديين . ذكرناه في بحثنا :
"The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman
Damascus, 1807-1918."

«أرض جونبة مسكونة ، يا لطيف !»

جدك قال لما يطلع عالضيعة ويمشي بأراضي جونبة ، وتبقى مسكونة ، يصيروا يلعبوا له برجليه ، ورجليه بالركابات ويمشي ما يقطع بعقله . وعمّ أبي حسين آغا يروح على بيت جن ، وكانت مقطعة ، ويروح حاطط السلاح وما يهّمه شي .

«الله يصلحه جدك»

مرة في جيرانا بيت ديب نصري ، وإلهم قماري عالقاعة ، ومرة سمعت حسّ غوشة وشوايش ، جايين رسميّة بنت شيخ المكارية عم تغني وترقص وتفقّش ، وسمعت صوت جدك الله يرحمه ، وأنا أتفلفل ويفور قلبي شوبدي ساوي . . رحّت في بنت عمتي عندها قاعة ، وبالصدر في ليوان ومكومة فيه الفرش واللّحف للسقف ، ورحّت أنا تخيّت وراها الفرش ، وإجوا طلبوني ما كانوا يلاقوني ويدوروا يدوروا . . بالأخير قالوا لمریم : «قومي شوفي عند أهلها ؟» . قمت أنا لما لقيت مریم حتروح طلعت .

أضرب ، جدك يروح يسهر ، من خوفي من عمّي قوم دقّر عليّ الباب ، يجي يدفش الباب يقول : «إجا أحمد الله يرضى عليه !» ، وهو وين ، يكون سهران .

يجي جدك شربان بهالليل ، يبقى طاقين ، وراكب الفرس ياخذها ، يبقى على طرف الحارة بيّاع حليب على حلّة هالحليب المهلّبة . . ويقول لها : اشربي ! وصاحبها يخاف منه ، يهرب ويروح لأبي يقول له : «دخيلك ، هدا صهرك» . يجي أبي لجدك يقول له : «والله استحي وشّي من العالم» ، يقول : «موأنا يا آغا ، هدا شريكّي» (يعني الشراب) .

بعدين أضربُ ، تاب واتمشيخ كثير الله يرحمه ، وراح عالحج . وحجّ
وراح هو وأمي ، قعدوا بالمحارة هو بعينة وهي بعينة ، وراحوا حجّوا .

كان وقتها سعيد باشا ⁽¹⁾ - الله يرحمه - باشا الحج ، كل ما مرق يقول
له جدك : «إيش يا ؟» . . تقول له أمي : «يا ويلى ، باشا متل هادا بنقال له
إيش يا ؟» . . يقوم يحرّد وينزل ، تميل المحارة ، يركد ابن الشنواني يجلسها .

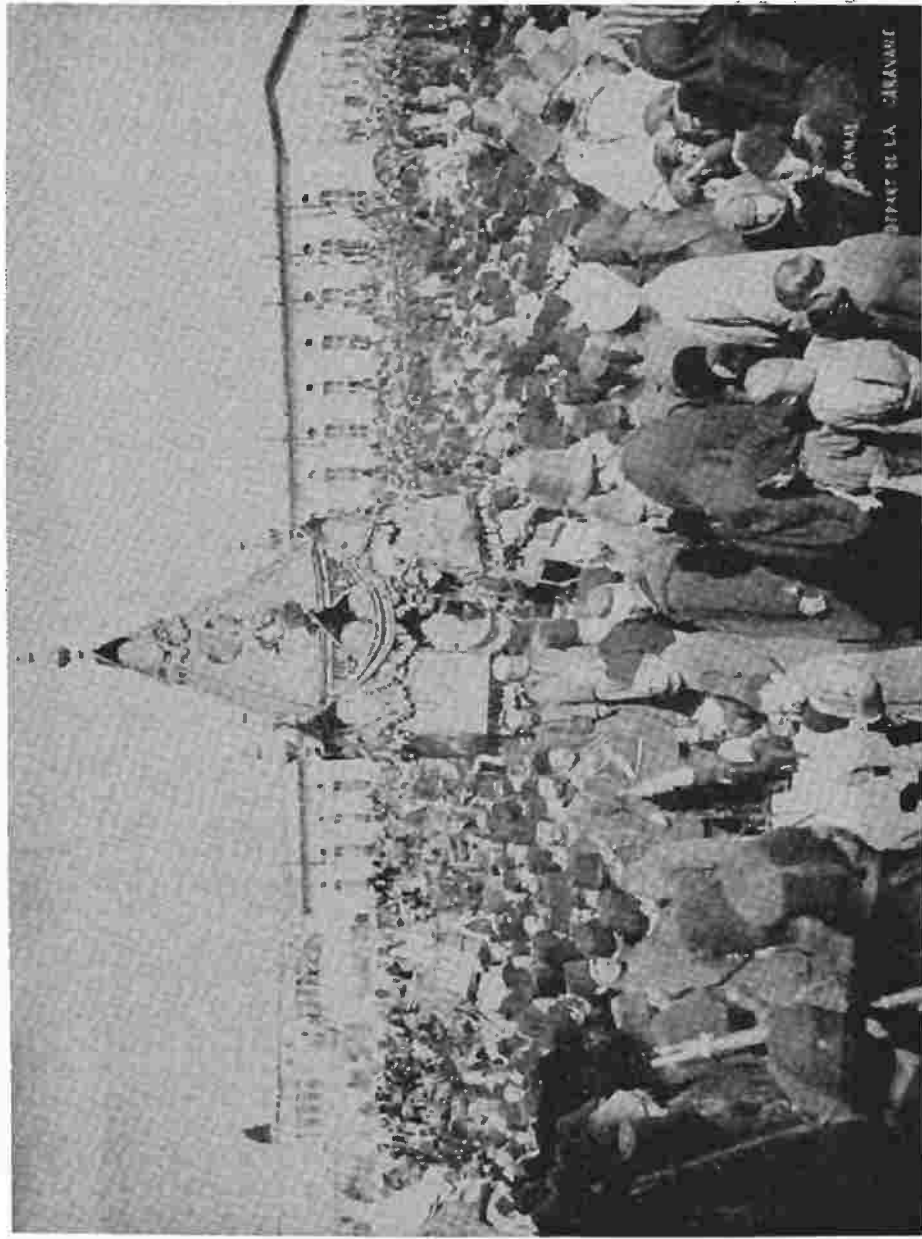
الحجّ الشامي

يققوا الحج يساواوا له رّة كبيرة . . يوم يطلع الحمل لا يتمّ أسطوح
بالدرويشية ، كل الدكاكين يكرّوهم . . الشبابيك ، الأسطحة ، كلها تالنة . .
تقعد هالعالم وينضرب المدفع ، ولما ينضرب المدفع ياخذوا الحمل عالسّنجقدار
ويصلّوا عليه ، تبقى المشيرية ، يحطّوا السنجق هنك . والشمع يلقّوه بالشال ،
يطالعه من بيت الطرزي بصقاق المبلّط ، ويحملوه زلمتين من كتف لكتف ،
ويقولوا : طلع !

وتطوش هالعالم وتطرق هالزّيكة ، وورا هالزّيكة تجي الخيل ، تلاقي
الخيّل عم ترقص رقص . تلاقي اليوزباشي ، الينباشي ، على اكتافهم عم يلمع
القصب وزنانير الصوف ، والياورات . مشقّيت منهم تلاقي الخيل عم ترقص
رقص ، هيك ليصل الحمل .

ويصل ويجي ورا الخيل ، وقدام منه اولاد العلي الخضري ، يلبسوا أبيض
وجبات خضر ، ويقولوا : الله أكبر . . الله أكبر . ويبقى المحملجي قاعد جواً
ومادد راسه ، والجمل عم يبيع ، وهالرش الفضّة مدندش دندشة .

(1) أي محمد سعيد باشا شمدين ، محافظ الحج (1870-1892 م) . وكان جدّ عبد الرحمن
باشا اليوسف - المذكور أعلاه - لأمه . أما اليوسف فتولّى الحج بين 1892-1918 م .



محمل الحج الشامي أمام سراي المشيرية ، صورة فوتوغرافية من أوائل القرن العشرين

ويمرق هالمحمل وراه تخت الباشا عالغال ، هالبغال حاطّين لهم هالأحمر ،
وبعدين يجي أبو حلاوة ، وهالعقيل فوقهم بقلب بعضهم ونازلين بهالطبول وعم
يشوبروا ، وورا العقيل هالعربايات وهالعالم . هيك للعسالي ، وعند العسالي
يلبسوا المحمل التوب الأخضر .

كانوا يروحوا عالمحاير مفردة ومجوزة . ووقت يصل الجمل لشباك سعد
الدين بالميدان يوقّف ويبيع ، يطلعوا يعطوه دعبولة لوز وسكر ، ياكلها ويمشي .
ووقت يجي الحج ، وقت يصل لمزيريب ، تطلع الجردة ويلاقوا للحجّة
ويرجعوا معهم .

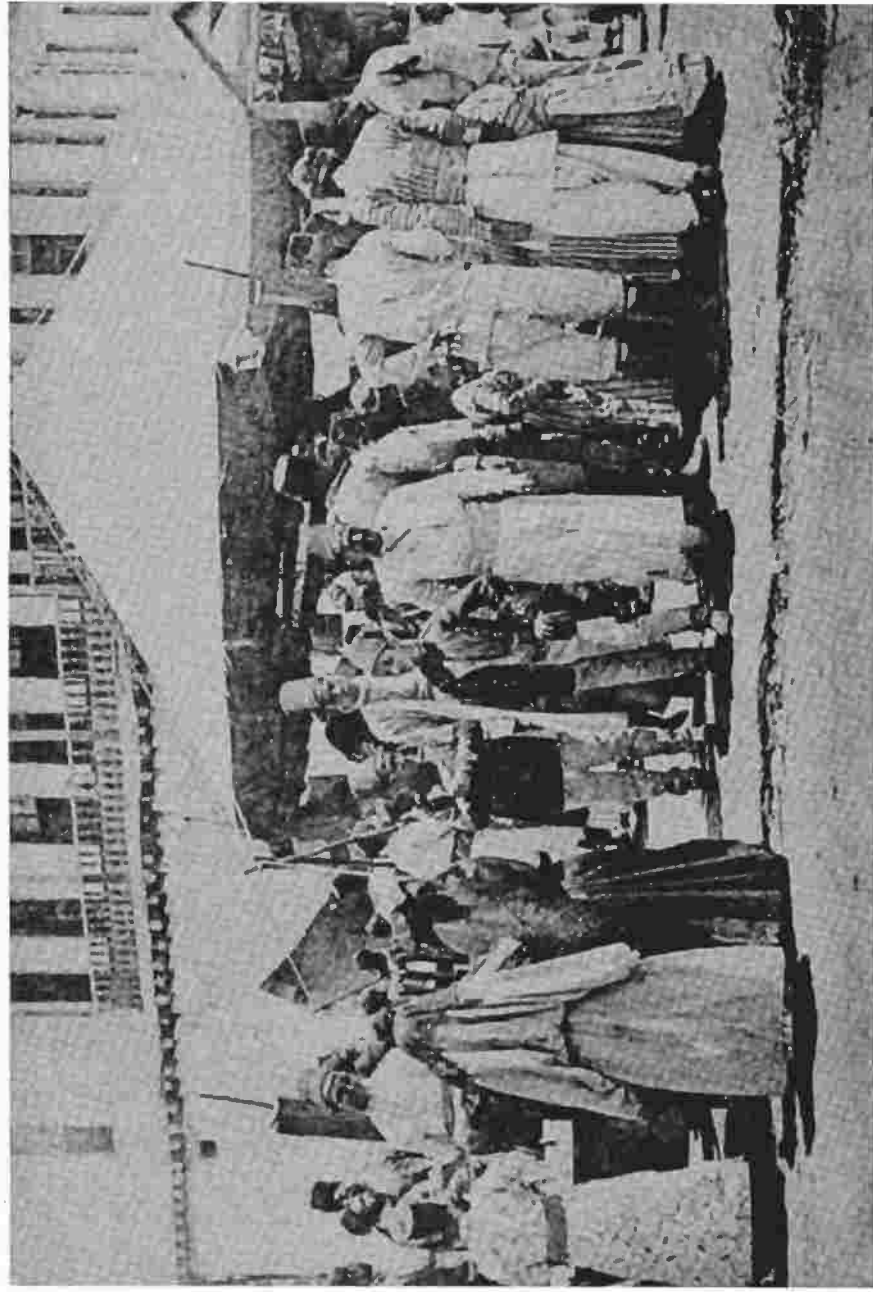
ما أحلى أيام العيد !

وقت الاعياد يبقى بقرنة القنوات في فضوة تبقى فيها قلابّة ، وقدام التعديل
محارة دوم ملانة اولاد ، ويسحب صاحبها الجمل . والقلابّة قاعدين بهالقلابّة
وعم يقولوا : «يا صاحب القلابّة ، مرّتك الطلابّة . . ويا صاحب المحارة ، مرّتك
الحمارّة . . ويا صاحب المرجوحة ، مرّتك الشرشوحة» . .

وجنيّة خان زاده ، آخيّو ، بالعيد يعملوا فيها تخت ، وتلاقي هالعالم
بهالتخت ، الدربكّة والدفّ وبيّاع الكعك وبيّاع المخلّل . . تشوف العالم عم
تغلي غلي .

وقت القلابّة بتطلع ما بيهمّ ، ووقت بتقلب وتفتل يبلحش القلب . بي ييه
مصارّي روّهم بالقلابّة ، دورتين تلاتة ، ويقولوا : عوّفت . وفي اولاد ما
ترضى تنزل ، تجددّ . . وبسوق القطن عربايات ياخدوهم ويجيبوهم ، وبنزلة
الدرويشية مشقيّت البيليك⁽¹⁾ كان يشتغل كراكوز .

(1) البيليك كلمة تركية beylik ، وهي دار السّعادة بأول سوق الحميدية ، كانت منزلاً لولاية
دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، إلى أن عمّر الوالي كنج يوسف باشا سرايته .



من خيام العيد بدمشق ، لعبة الأحصنة الخشبية «الدويخة» ، صورة فوتوغرافية قديمة

اصأالله زمان الحمام

اصأالله زمان الحماميم ، وقت النفا نبقي نساوي جداد ، من جميع البهارات ، ندقها وننخلها ونروح عالحمام . ويوم حمام الفسخ يفقسوا ثلاث أربع بيضات ويدهنوا لها بدنها .

ويوم الأربعين الجداد تجي البالنة ترش لها كل بدنها حتى يصير كل بدنها ، وبعدين تحط لها دلوك على وشها ، وهلي حاضرين ويفركوا لها ياه ، تتم قاعدة الحتي تعرق . . كل نتفة يفركوا لها بدنها ، وتجي هالبالنة تاخدها على جرن الحمام وتنشف لها بدنها .

يبقى الحمام إلى أهمية . . نروح عالحمام تبعث البالنة تحمل لنا هالبقج وتسبقنا ، وما تشوف بأرض هالحمام إلا قشر الكرنب وقشر الجوز . . وتبقى أمني قبل يوم تساوي كشكة خضرة ، ونبقى نروح على حمام عز الدين ، وما أطيب الكشكة الخضرة بهالحمام ، نساويها ونحطها بالزبدية . . والرمان الحلو والجوز أشكال ألوان .

بقا مريم الله يرحمها تغسلنا ، يقالها كل بز هالأد⁽¹⁾ ، وتحطنا إدامها وإلها كرسي مخصوص ومقصورة ما حدا يسترجي يقرب ناحها . . ولما تسخن المي تنده : «غنطوسة ، باردة !» . . وتحطنا إدام منها ، ولما تعمل هيك براسنا تفركه فرك ، وتنده لغنطوسة تفوت غنطوسة تفركنا .

ما كان في حماميم بالبيوت ، والله هالحماميم بالبيوت طلعت حلوة . . شو ، قوموا انتعوا هالبقج وروحو . نروح نحنا بالأكثر على حمام الزين ، أهلي على حمام القناطر ، وبنزلة صقاق رامي كان في حمام الصغير . . اصأالله أكل الكرنب شو ما أطيبه بالحمام ، نمسك الراس من دنه ونطبشه عالارض يروح . . يعني كل شهر حمام .

(1) قلنا سنترك العبارات على وضعها دون تحريف ، فعذراً !

خَدَّوَج الدَّايَة الله يرحمها شو كانت منيحة ، دوم أَلَدْ على ركبها . . والله
أبي يوم أطلق ينفخ النار مشان تسخين المي ، وساوي تغطية . . يمدّوا لي حصيرة
بأرض الديار وطراحة وقت أطلق ، وفوت عالحريم وسكّر عليّ وأتسطح على
حقة المربّع وأتمرغ ويتناوقوا عليّ . . الله يجعل عملنا منيح ، ما حدا بقيان . .

راح لي ثلاث ولاد !

وين . . أنا راح لي محمود وجيهان وزهرة وريّا أم منيرة ، وطرح بعيون
الشیطان خمسة . شو جيهان مثل الياسمين . . حلوة كنت أعمل لها ضفاير ،
وعملت لها بسفلهم جواربخ حمر . وتقعّد بكتيبة اللیوان ، وتبقى قَرطَة
وتقول : «لروح عالعة وأنكثها» . . عمرها ثلاث سنين ، طلّعا عالجديدة وسكّنا
بآخر البلد ، وفي بيت الحناوي بجنب هليّ سكّنا عندها أم أحمد ، وهي بيت
الحناوي عينها صيّابة ، قامت نضرت الولدين وتكرفتوا هالاولاد ، ونزلنا من
الجديدة بين الولد والولد عشرين يوم . . محمود ومحمود مثل الخاروف ، وزهرة
إن شا الله فالها معها . . آه ، إن شا الله بلاقيهم بالجَنّة ⁽¹⁾ .

جيهان كنت عم إغسل ، وعاطيتها كم ملبّسة وهي قاعدة ، وما لقيتها إلا
لَوْتُ رقبته وسلّمته ، ولسّاتها كامشة الملبّسات بإيدها ⁽²⁾ .

ووقت ضعفت زهرة ، أَضْرَبُ ، شفت حالي راكبة بعرباية ، وولد على
ركبتي . . نجس تلوّت إيدي ، وقفّت العرباية وقالوا لي : قومي اغسلي إيدك .
وأسمع صوت ولد عم بيكي ببستان ، وألْطُشْ أنو لاقني شي طريق ما كنت لاقني
أصل لها . .

(1) لا زالت تطفر اللّوعة من كلمات الأم التّكلي على صحائفنا هذه ، بعد وفاة أولادها
بقراية القرن ، ووفاتها هي بـ 44 عاماً .

(2) كم هو مؤلم وجارح هذا الوصف . . الله لا يورجيهما لحدا . وكانت وفاتها بالحميرة .

وقت توقّت جيهان ، شفت حالي مثل كاني بقصر ، ولقيت روشن طلعت عليه ، وعليه جهان ووشّها مجلّل ببرنجكة قصب ووشّها عم يشعل شعل .

ووقت كانوا جيهان ومحمود ضعفا ، شفت حالي قاعدة على حفّة المربع ، وما لقيت إلّا واحد فات بلقّة بيضة وهالولاد مسطحّين ، وقال لي : هلاّ بتريدي هاد والّا هاد ؟ . وأنا ما كنت أسخى بهاد ولا بهاد .

الله يعيننا عليها ، يا حصرتي علينا ، يحطّوا البلاطة فوقنا ويمشوا ويقولوا أنه بتلبسنا الروح ، وينرفع راسنا بنطرق بالبلاطة وينقول : «الله ! شو متنا ؟» . ويبجوا بقا يبحاسبونا ، هلّي من أهل الجنة يسألوه مين ربّك ، مين نبيك . . . يعرف . وهلّي من أهل النار - يا لطيف - يقول : «ها ؟ ها ؟ ما ادري» . يا حصرتي علينا ، الله يجعلها بالإيمان .

طهور ابني محمد

أبوك يوم ما تطهّر⁽¹⁾ طالعهو عالمربّع ، كان مربّع ورا باب الصقاق ، فوتّوه وسطّحوه جواً ، وعلق برقبتي وما عاد يتركني ويقول : يامو يا يامو ، ويرجف .

ووقت عمّك بدّهم يطهّروه كان ديب الساطي موجود ، وجابوه على أوضة الفلاحين بيت جدّك ، ومن غير درايتي ، وكانوا قواعيه وسخين ورجليه وسخين ، وحالة . . وفوتّوه وطهّروه وطالعهو ومالي دريانة .

وقت الطهور بدّهم يطهّروا ولد يجيبوا خيل ، يركّبهو على هالفرس وقدّام منها هالمرفعية ، ويحطّوا له الألباس عالطربوش ويجيبوا له برنجكة حمرة ويحطّوها على وشّه ، ويلبّسوه بابوج قصب ، وسعيد مصليّ عالنبي قدّامه يقول : قلب العامر يصلّي عالنبي . وهالعراضات ولعب السيف والترس .

(1) كقولة الكناية الشامية : من أيام طهور جدّي ! فهذا هو طهور جدي محمد آق بيق .

وياخدوه ويزوروه سيدنا يحيى ، وياخدوه على هالييت يغيروا له قواعيه
ويلبسوه قواعي الطهور البيضا ، ويحطّوا هالسّفر وتاكل الناس . وبعدين
يطالعوه ويطهّروه ، ومن عياط الناس . . «نير وغضير ، وصلّوا على محمد» . .
ما بتسمع بكا الولد .

جوازة ابني محمد ودراسته

كان بدّي تشوف التليسة هلّي صارت لأبوك . . بيوت الأكابر كلها
اجتمعت ، وأخدوه لبسوه ونزل صافحهم كلّهم وبوسوه ، وأمك⁽¹⁾ جابوها
بعرباية ، ومزوقين الشبايك والخیل بشرائط زهر وتشاكيل . . نزلوها ، وقف أبو
ممدوح عمّك حملها وفوتها ، ومدّوا لها قدّامها ليات سجاد . وكان عنّا اليواخر
البرّاني ساووا الأكل وحطّوه بها اليواخر ، الفات والطالع والدريّة وينزلوا من
علا ساطيح ياكلوا ويطلعوا . والله الصرّة هلّي جابوا لها ياها وقتها ، وعطتها
أمك لعمتك عدّلا ، وفيها من جميع ما تطلبه النفس .

حطّينا أبوك بالإعدادية ببيروت ، يبقوا الواحد يحطّوه بالإعدادية ويطلع
منها ضابط ، وبعدين يصير . وأبوك لو ضلّت كان هلا يوزباشي بنباشي ، الله
أعلم . . يبقى يقعد ، انشا الله العمر إله ، عند عز الدين سلف أم ياسين ببيروت ،
يحطّه بالأوضة لحاله ويروح هو يسهر ، ولما يطلعوا الاولاد يطلع أبوك يدقّ لهم
بالفريرة .

أول الكل حطّيناه عند خجا أيوس بحارتنا ، قام يوم الواحد تعوّق ما كان
يجي . . وینه ؟ وینه ؟ بعدين رحنا لقيناه ورا الباب عم ييكي ، مغيلة عليه
ورايحة . حتى راحوا وراها لبيتها وجابوا المفتاح وفتحوا له .

(1) هي إنعام بنت خليل آق بيق القبّاني (1908-1960) ، حفيدة أحمد أبي خليل القبّاني ،
وأما رثيفة السادات (توفيت عن 31 سنة) . وتزوجت عام 1920 ، وهي جدتي لأمي .

طلعنّا عالمحطة يوم بدّويجي من بيروت ، طلعنّا لاقيناه واقف بتمّ الفرقون صغير هالطول . مدري ليش وقتها طالعناه ؟ إيه وقتها بطلت . لو ضلّت دايمه كان هالأضابط ! قبله يفوتوا عالرشدية ، ويطلعوا من الرشدية يفوتوا عالاعدادية .

قعد أبوك بالإعاشة [الميري] ، وقت ساووا الإعاشة وصار الغلا . . وبعدين توظف بالعدلية ودرس بمكتب الحقوق ⁽¹⁾ .

وقت إجا من بيروت ، سافرت رياً ⁽²⁾ ، الله يرحمها . موبعد بكتير كان حرب الترة ⁽³⁾ ، كان عمرها ثلاثين سنة ، سافرت هي وسافرت بدرية بنت أم ديب ، قام جوزها راح بوظيفة عالبحج ، والرّخر نفّسا ما ولدت ، طلقت ما ولدت . . إجانا خبر عمّتك ، أضرب ، بعد يوم إجانا خبر بدرية . وتركّد أم ديب وتقول لي : يا مروت أخي هلّي صابك صابني .

تطبخ سارة بنت حماها الطبخ وتقعّد تعدّ شقف اللحمه حتى ما تفوت تاكلها عمّتك . . الله يجعل قلبنا أبيض . . والله عذّبوها كتير . . والله ما كان سبب موتها إلا هنّه . . حبلت وحطّوا عليها بدّهم يطرحوها ، يعطوها أدوية يعطوها أدوية ، ما طرحت . . راحت السفر ما رجعت . . مضّوا حياتها بقلّة الرياحه .

كانوا بيت شعلان بالبحج وقت ماتت بدرية ، ودورّوها داير ما قتل النبي ، ويقولوا : ترحّموا عالغريبة . التنين قبل ما يروحوا يعدّوا يغنّوا : «يا حبايب قلبي تعوا ودّعوني» . ما كان لهم شبّه هالتنين . . بدرية ما أحلاها ، شو تحبّنا ، انشا الله بالجنّة يا إلهي .

-
- (1) ثمّ أضحى ابنها محمد آق بيق رئيس محكمة بداية الجزاء ، ثمّ رئيس محكمة الجنايات بدمشق ، واشتهرت سيرته بالنزاهة والاستقامة ومناصرة الضعفاء ، حتى حمل لقب «القاضي النزيه» . ولد عام 1904 ، وتوفي إلى رحمة الله بدمشق عام 1977 .
- (2) أي ابنتها رياً ، توفيت في تركيا حوالي عام 1910 عن 25 عاماً ، وزوجها صادق آق بيق .
- (3) أي حرب السّفَر برلك 1916-1918 أثناء الحرب العالمية الأولى .

وقت ضعف أبو ياسين جوز عمّك أم ياسين ، شافوها بنومهم دواير
الفرشة عم ترقص ، وقام لحقها .

العذاب هلّي تعذبته عمّك أم ياسين بترباية اولادها ، مات وترك لها ياهم
صغار ، وستهم وعمومتهم أكلوا المال عليهم . أبوهم كان زنكيل كثير ويكسب
مصارى ، كان يتاجر ، وقت مات أخذوهم كلهم وقالوا : «هدول مولأبو
ياسين» ، وأكلوا المال . قام يا لطيف عزّ الدين إجنه بمبة فلقّت راسه بالنصّ ،
وحسن البعيد فطس الرّخري ، ولحقتهم بنتها كمان صبيّة .

عمّك قضّت كثير ، وتبقى نفسها كبيرة ، حطّت اولادها تعلّموا كار
الخطاطة ، وعلمّت بنتها وهي تشتغل وتقدّم لهم ، ما تنام الليل مشانهم .

من حوادث الثورة السورية 1925

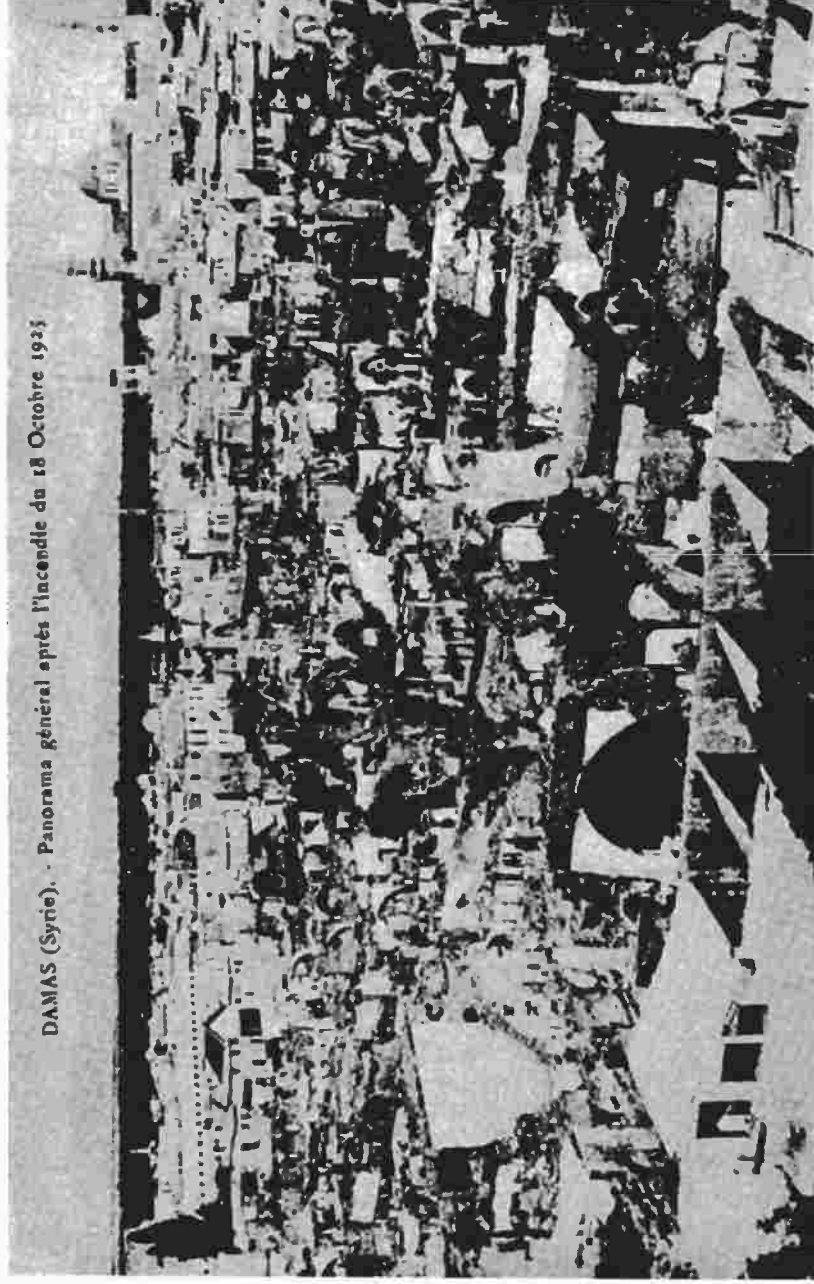
مرّة بسيدي عامود⁽¹⁾ ما نسمع إلا حسّ الدّبك على سقف القاعة ، قام
طلع أبوك على سقف القاعة وأخذ الفرد معه ، وكان وقتها ممنوع القواص ، وينطّ من
علاسطايح . قام هداك نزل على بيت الرّبّاط وهرب وراح ، وما تسمع إلا قواص
بهالليل ، وكان أبوك رح يقوّص عمّك ، تخايل فيه لو ما صرخ . وأبوك نطّ من
أسطوح لأسطوح ، وبيناتهم صقاق ، وهو ماسك بإيد فرد وبالإيد الثانية الكاز .

وقت الثورة شو تمرّمرنا ، القتلى على عرض الطريق ، وما تلاقي إلا قتلى
مطرقة وأدمية سايلة . أخذونا على بيت الشّنواني بنزلة حمّام القاضي⁽²⁾ . صار
الطرق والسفك ، أخذونا لبيت خالي بالعمارة ، قال خالي : «الله يلعن لحية هلّي
عند رغيف خبز» . . ومرت خالي خابزة عالصاج ، تلاقي تعطينا رغيف يشتغل
الخطف عليه .

(1) كانت دار آق بيق بهذا الحي ، من أكبر دوره وأجملها ، على كتف شارع مدحت باشا .

(2) نزلة حمّام القاضي : حارة في حيّ سيدي عامود تجاه سوق مدحت باشا .

DAMAS (Syrie). - Panorama général après l'incendie du 18 Octobre 1933



زقاق سيدي عامود (الحريقة) ، إثر القصف الفرنسي في 18 تشرين الأول سنة 1925

بعدين أخذونا على صقاق العدّاس لعند أهل مرت عمك فطمة ، بعدين
أخذونا لبيت أبو قاسم عالخضيرية .

صالح أفندي شوري ، الله يرحمه ، قال له لجّدك : «إنت ليش مهموم ؟
كل واحد قواصة قواصة منروّحهم» . . وشو عالسقف بم بم طرق الضروب ،
وراغب أفندي شوري طلع يشوف منين الضرب ، قامت إجته رصاصة وقع
بأرضه ، وشلون يوصلوه عالتربة ؟

تركنا البيت لما إجت الحريقة⁽¹⁾ ، وجابوا حمّالة يحملوا الاغراض ،
وسرقوا نصّهم ، شي يوصلوه وشي ياخذوه لحالهم ، الصيني ، الزيادي ،
كله راح . وطلعوا عالسقيفة فتحوا تنكة السمّة وقعدوا ياكلوا ، قال له واحد
للتاني : «لك إجتنا النار» ، قام قال : إي شو بدّي أعمل لهم ؟ . .
وقفوا السنغال⁽²⁾ على أسطوح البنك وعلى الموادن يصطادوا الناس ،
وعالقلعة ، كل ما واحد طلع يتناولوه .

وفاة جوزي أحمد آغا

جّدك الله يرحمه قبل ما يموت ضعف ، ومنوب قلب رجله هدمته هدم ،
كنا منقولين من عرنوس وعند أبو ممدوح بالسويقة . ووقت فضي بيتنا ، طلّعنا
لبيتنا . . كان مسطّح بالفرشة ، والمسبحة بإيده وهو عم يقول : الله ، الله . وإجا

(1) أي الحريقة الكبرى بزقاق «سيدي عامود» ، يوم قصف جيش الاحتلال الفرنسي دمشق بتاريخ 18 تشرين الأول من عام 1925 ، للقضاء على الثورة . وأضحى هذا الحي ركاماً بعد أن كانت فيه أجمل الدّور الدمشقية الأصيلة ، كدار مراد أفندي القوتلي ، ودار صالح آغا آق بيق (أبو أحمد) التي دارت فيها أغلب أحداث هذه المذكرات .

(2) أي الجنود السنغاليين السّود ، التابعين للفيلق الأجنبي La Légion Etrangère في جيش الشرق الفرنسي . وقد شنّع هؤلاء بالمواطنين السوريين ، وبخاصة في مجزرة البرلمان بتاريخ 29 أيار 1945 .

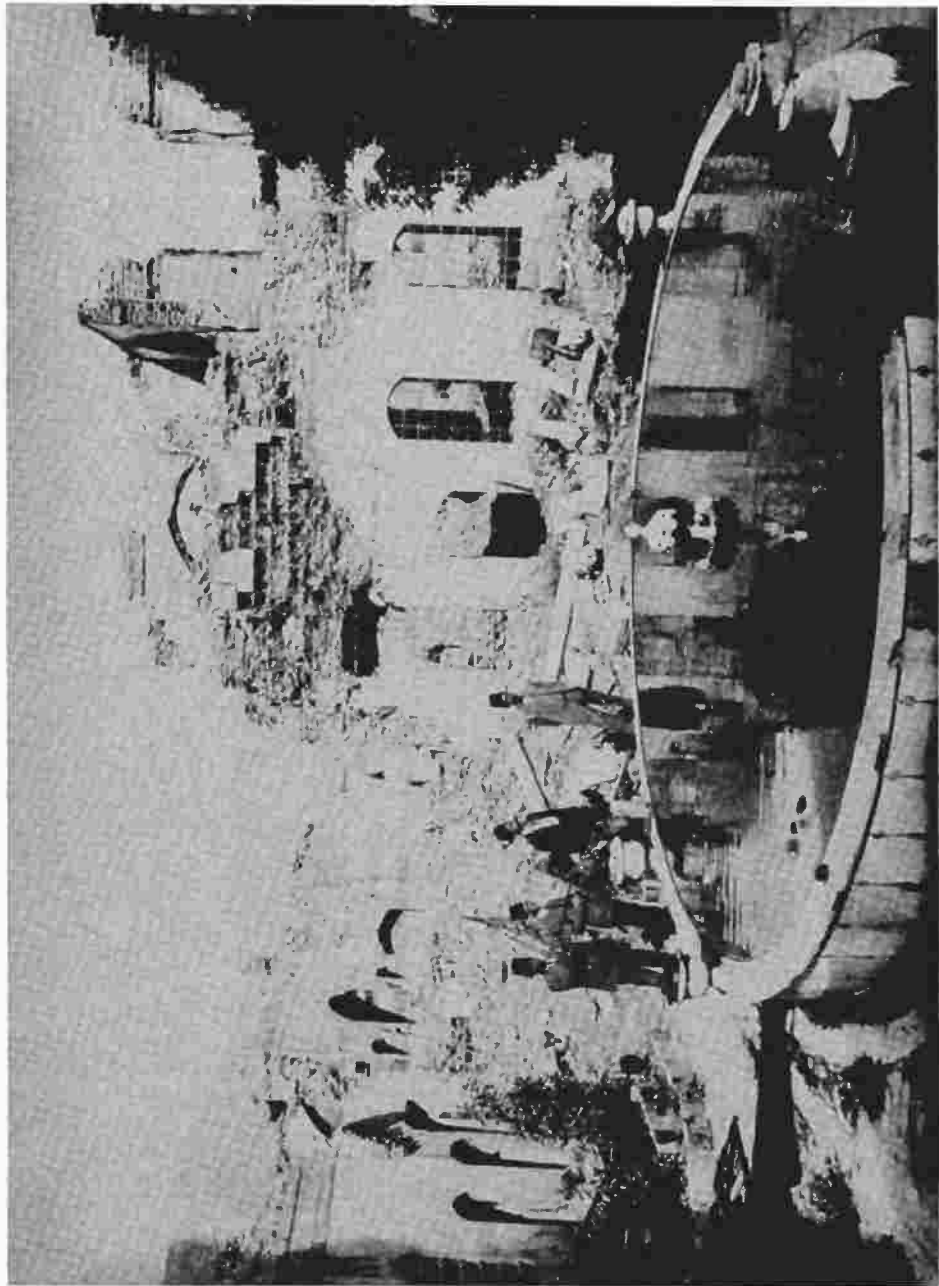
لَعْنَدِه نَهَارَهَا مَحْمُود بَك جُوز فُوزِيَّة أُم أَكْرَم ، قَالَ : «اللَّهُ يَخْتَمُ عَالِإِيمَان» . . مِنْ هُون لِبَعْد سَاعَةِ نَزَل بِمَنَازِلَهُمْ ، وَلِسَانُهُ مَا فُتِرَ مِنْ قَوْلَةِ «اللَّهُ» ، وَشَخَصَتْ عَيُونُهُ لِلْحَقِّ ، وَقَعْدَ عَمَّكَ صَارَ يَقْرَأُ لَهُ .

وَاللَّهُ مَضَى حَيَاتِهِ مَا يَحْكِي عَلَى حَدَا ، مَا يَحِبُّ يَغْلِبُ حَدَا ، إِلَيْهِ وَاللَّهُ .
وَقْتُ إِخْدَانِ الْخَاطِرِ مَا تَمَّ حَدَا بِيَبُوتِ الْقَنَوَاتِ ⁽¹⁾ ، كُلَّهَا طَلَعَتْ أَخَذَتْ الْخَاطِرَ .

[انتهى]

* * * * *

(1) سَكَنْتِ الْعَائِلَةُ بِالْقَنَوَاتِ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، بَعْدَ خَرَابِ بَيْتِهَا فِي حَرْبَةِ عَامِ 1925 . ثُمَّ تَنَقَّلَتْ فَاطِمَةُ الْبَدْيُوبِي ، صَاحِبَةُ الْمَذْكُورَاتِ ، مَعَ ابْنِهَا مُحَمَّدٍ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا ، إِلَى حَيِّ عَيْنِ الْكَرْشِ ثُمَّ إِلَى حَيِّ السَّكَّةِ بِالْمُهَاجِرِينَ ، حَيْثُ تُوُفِّيَتْ فِي أَيْلُولِ 1958 ، رَحِمَهَا اللَّهُ .



إحدى نتائج القصف الفرنسي في 1925 ، خرائب دار مراد أفندي القوتلي بسيدى عامود

قلت :

وأما جدة أُمي نفسها ، راوية هذه المذكرات ، فقد أغمض الموت أجفانها
وأسكت آخر أنفاسها ، بمنزل ابنها محمد آق ييق بحي السّكة في المهاجرين بدمشق
في شهر أيلول من خريف عام 1958 .
عليها الرّحمة والرّضوان .

* * * * *

وأخيراً ..

سيأتي علينا الدّور ، وسنموت كما ماتت فاطمة البديوي ، وابنتها الطفلة
جيهان ، ومحمود وزهرة ، وزوجها أحمد آق ييق ، وابنها محمّد ، ثم بدأت
بضعة من حفيداتها بالانتقال إلى الدّار الآخرة (ربيعة وابتسام) ..

سنرحل جميعاً ، كما رحلت جميع شخصيات هذه المذكرات بأسرها دون
استثناء .. إن عاجلاً أم آجلاً .

سنرحل ، وتبقى الذكريات ، وتبقى الغالية دمشق .

إيه يا دمشق ..

يا جدّة المدن ، ويا سحر الشّرق ..

فيك ولدنا ، وترعرعنا ، وتعلّمنا حبّ الوطن ، فيك نَمَتْ أحلامنا
وأزهرت آمالنا ، وفيك دغدغ الحبّ شغاف قلوبنا في سنّ الشّباب ، وأحرقت
ذكريات الماضي صميم أرواحنا ، عندما تبدّد الماضي وغابت عن مآقينا أوجه
عزيزة ، واختفت ضحكات وتبدّلت أيام وسنوات .

سنتركك يوماً ، ولكن . . لا تنسينا أيتها الحبيبة الخالدة دمشق . لتبقى
أسماءنا مسجلة على ذرى قاسيونك وبين أزقة حاراتك الحانية الودیعة .

ستبقين يا دمشق ، على أديم الدهر ، سحراً وألقاً وتاريخاً وأصاله لا
تمحوها القرون . وتغدو أسماءنا وحياتنا وذكرياتنا مجرد أصداء زائلة فانية ،
كنسمات خریفیه هبت ورمّت بأوراق ذوت واصفرّت في أدواح الغوطة ، أو على
ذرى جبال لبنان الشرقية المحتضنة لدمشق ، أو تسلسلت مع سواقي وادي بردی
الرقاقة بين أرجاء غياضه الجميلة .

سجلناها هنا كليمات من ذكريات فاطمة ، ابنة دمشق . . ولكن ، كم من
آلاف الذكريات الغالية والحكايات الغريبة النادرة ، والآلام والأمانی والعبرات ،
مضت وبادت مع أصحابها ، ولم يدركها حظ لتسجل على الورق !
كل هذا لا يهم ، طالما ستأتي أجيال جديدة ، وتحافظ على تراث الأجداد ،
وتتذكر على الدوام أن دمشق باقية ، وأرواح أبنائها معلقة بها إلى الأزل .

* * * * *



التكية السلیمانیة ، نقیشة تعود للقرن التاسع عشر

مستدركات

بعد الرجوع إلى المذكرات المكتوبة لجدة أُمِّي ، فاطمة البديوي ، رَوَت لي خالتي الحبيبة زهراء آق بيق - أمدّ الله في عمرها ، وأعطائها الصّحة - بضعة وقائع عائلية ، وجدتُ في إيرادها هنا فائدة وتتمّة لما كنتُ بدأتُ بتدوينه .

عرس محمد آق بيق ابن فاطمة صاحبة المذكرات

في عام 1920 ، كان عمر محمد بن أحمد آغا آق بيق 16 عاماً (وهو من مواليد 1904) ، وكان في الصف الثامن لما قرّر أهله تزويجه ، فخطبوا له إحدى بنات العائلة (إنعام القبّاني) ، وكانت ابنة 11 عاماً (من مواليد 1908) ، وهي ابنة خليل بن أحمد آق بيق (الشهير بأبي خليل القبّاني رائد المسرح في سورية) . وكانت عائلة القبّاني هذه فرعاً من آل آق بيق ، حملت اسم القبّاني نسبة لحرف مال القبّان التي زاولها محمد آغا آق بيق والد أبي خليل .

وكانت العروس إنعام تقيم في بيت ذويها في منطقة زقاق الصّخر ضمن بساتين كيوان الجميلة ، على طريق الرّبوّة . وما زالت أطلال دار خليل القبّاني ماثلة إلى عصرنا الحاضر ، بعد أن تداعت أكثر أركانها إثر وفاة آخر أولاده في عام 1989 . وكانت تلك الدار من أجمل الدّور موقعاً ، تقع على مسافة بسيطة من قصر الغزاوي الشهير ، وتطلّ على وادي النهر غير بعيد عن طاحون كيوان ، وتحفّ بها الأشجار والزروع والأزاهير الجميلة النادرة ، ومنها ياسمينة زرقاء كانت مثاراً لتندّر كل من يراها .

أما العرس ، فكان بالطبع في دار والد العريس بمحلة تحت القناطر بزقاق سيدي عامود ، وتم في بدايات فترة الاحتلال الفرنسي لسورية عام 1920 . وقد دُعيت إليه أعداد كبيرة من النساء ، من الأهل والأقارب والجيران ، وكان عرساً كبيراً غنّت فيه «بنات مكنو» الشهيرات .

غير أن أكثر النساء كنّ يتفاجأن من صغر حجم العروس واصفرار لونها ، وكانت أصيبت بالتيفوئيد ، حتى أن زوجة جارهـم ابن القوتلي قالت لفاطمة أم العريس : «شو ما لقيتي لإبنك محمد غير هالفرتوكه ؟» . . غير أن نفس المرأة بعد 3-4 سنوات ، دخلت بيت أحمد آغا ، فرأت صبيّة جميلة ابنة 14-15 سنة ، وقد انسدل شعرها البني الطويل على كتفيها فبلغ خصرها ، ولاحت على محياها الجميل مسحة جمال أسرة ، تزيّنها عيـنان خضراوان وبشرة بيضاء مشربة . أطالت الجارة النظر وقالت لفاطمة : «إي هه ، هيك كنت خديله وحده حلوه لمحمد . . شوهاد ؟» . قالت فاطمة : «ولك هي هيه بذاتها مرّت محمد !» ، وكانت كبرت وتبنّت .

نعود إلى العرس :

أكبر مفاجأة كانت عندما دخل العريس والعروس إلى المخدع ، قال وإذا بولاويل العروس تتعالى بقوة من الداخل ، والعياط والبكاء .
يا لطيف . . ما الذي جرى ؟

اندفعت فاطمة إلى الدّاخل مسرعة . . «ولك خير ، شوفيه ؟» . . وإذا بها تفاجأ بالعروس ابنة الـ 11 عاماً وهي تقول لها : «بدّي سكاكر . . ما خلاني محمد أكل سكاكر من هادا السّبب اللي هون !» .

ماذا يُتوقّع من عريس عمره 16 سنة ، وعروس عمرها 11 ؟

* * * * *

وقيل كانت فاطمة تلاقي التباريح من ولدنة كتّتها إنعام ، التي كانت ما تزال طفلة ، فتارة تراها تقصّ الستائر مع ابنة حميها الصغرى ، ويعملان منها أثواباً للعبة ، وتارة تقفز بين أطباق الرزّ بحليب المفرودة فتدوس في داخلها ، وطوراً تلقي بسجّادتها في بركة البيت حتى تغسلها .

لكن الأطراف من ذلك كان زوجها محمّد ، الذي كانت «تكى» في العثور عليه لتناديه لطعام الغداء ، فتعثر عليه أخيراً فوق الشجرة «متعمشاً» يلعب . . ياله من «عريس فوق الشجرة» .

«شهر عسل على بسكليته»

كانت لمحمّد درّاجة هوائية «بسكليته» ، فلما تزوّج من إنعام شاء أن يأخذها «دورة» على بسكليته ، فماذا يفعلان طيلة الوقت إن لم يلعبا كباقي الأولاد في سنّهما ؟

فتحيّن العروسان فرصة عدم انتباه الكبار لهما ، ودلفا من باب «الصقاق» إلى الحارة ، وأرّدف محمد عروسه على البسكليته خلفه ، وكانت بلا نقاب ! ولعبا ما حلا لهما أن يلعبا في الحارة .

ثم للقارئ الكريم أن يتخيّل اللّقاء المثير الذي كان بانتظار العروسين ، عندما اكتشف الأهل غيابهما ، فأكلا «قتلة» ماكنة بيسطون أحمد آغا ، كانت كافية حتى لا يفكّرا مجرد تفكير بإعادة المحاولة .

هذه كانت العادة المألوفة في دمشق في الماضي ، فسنّ الزواج للعروسين لم تكن تزيد عن ذلك كثيراً ، وكانا يقيمان بالطبع مع الأهل كطفلين في العائلة .



